أحاديث إصلاح القلوب

(٤٢)

محبة الله

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ((أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ ؟ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ)).

وروى البخاري عَنْ أَنَسٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِ - {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا ، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ

السُّورَةِ ثُمَّ لاَ تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ مَا أَنَا بِتَارِكِهَا إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ يَا فُلاَنُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّهَا فَقَالَ حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ.

وعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِى النَّارِ ». متفق عليه.

إن أجلّ مقامات العابدين وأعظم منازل السائرين : محبةُ رب العالمين وخالق الخلق أجمعين . الذي لا إله إلا هو ، الملكُ القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، ذو الجلال والإكرام ، الرب العظيم سبحانه الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وهي روح الدين وغذاء الأرواح ، وأساس السعادة وقوام الدين والأعمال.

قال ابن القيم رحمه الله: "وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون

وإليها شخص العاملون وإلى علمها شمر السابقون وعليها تفانى المحبون وبروح نسيمها تروح العابدون فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائما إلى الحبيب وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب".

وهي أساس السعادة ، وسبيل الفلاح في الدنيا والآخرة ، الجالبةُ للأعمال ، المحقِّقةُ للكمال ، البالغةُ بالعبد إلى خير المقامات وعليِّ المنازل . فشأنها عظيم وأمرها جليل ومكانتها في دين الله رفيعة ، وكان من دعاء نبينا – عليه الصلاة والسلام – كما في سنن الترمذي وغيره ((أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ)) ، وجاء في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم

قال: ((إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ، قَالَ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ)) ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم:٩٦] .

وثمار المحبّة وآثارها وفوائدها وعوائدها على المحبِّين في الدنيا والآخرة لا حصر لها ولا عد ، ويكفي المحبَّ أن الله تبارك وتعالى معه مؤيّداً وحافظا ، ومسدِّداً وموفِّقا.

وفي خضم توالي الفتن وكثرة الصوارف وتنوّع الملهيات والصوادّ التي يبتلى بها الناس تضعف محبة الله في القلوب ويضعف تبعـًا لذلك آثارُها وثمارُها وموجباتها ، وهذا مقامٌ يتطلب من العبد عودةً صادقةً بنفسه إلى الله ؛ باحثـًا عن سبيل نيل محبة الله تبارك وتعالى ، متطلبـًا الأمور الجالبة إلى قلبه محبةَ الله ، ليعود إلى قلبه صفاؤُه ونقاؤه ، وبهاؤه وضياؤه ، وذلك بعمارته بمحبة الله جل وعلا.

وهذه وقفة أُذّكِر فيها بجملة من الأمور العظيمة التي تجلب إلى القلوب محبّة ذي الجلال والإكرام :

فأول ذلك: عنايةٌ صادقة بكتاب الله تدبراً وتأملا ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩] ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] وعندما يقرأ المرء القرآن لا يكن همه ختم السورة وليكن همه عقلُ الخطاب وفهمُ المراد ، فهذا من أعظم الأمور الجالبة لمحبّة الله جل وعلا ؛ التأمل في كلامه العظيم وذكره الحكيم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت:٤٢]

ومن الأمور الجالبة للمحبة العناية بالنوافل بعد الفرائض ؛ فهذا أمرٌ عظيم يجلب للقلوب المحبة ويغذي القلوب بها ، وشاهد ذلك فيما رواه البخاري وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال : ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)) ، والمعنى أن الله سبحانه يؤيده ويسدده في سمعه وبصره وفي قدمه ويده وفي جميع أحواله .

ومن الأمور الجالبة للمحبة: إيثار محابِّ الله على محابِّ النفس ، وتقديمها على ما يحب مهما كانت رغبة النفس ومهما كان طلبها ، وقد

تقدم قول النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)) .

ومن الأمور الجالبة للمحبة: معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ؛ فإن العبد كلما كان أعظم معرفة بالله كان لله أحب ولعبادته أطلب وعن معصيته أبعد ، وشاهِدُ ذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٨] .

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله –: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر».

فمعرفة الله تقوي جانب الخوف والمراقبة وتعظم الرجاء في القلب، وتزيد في إيمان العبد، وتثمر أنواع العبادة، وبها يكون سير القلب إلى ربه وسعيه في نيل رضاه أسرع من سير الرياح في مهابها، لا يلتفت يمينا ولا شمالا، والتوفيق بيد الله.

وهذه المعرفة هي التي عليها مدار السعادة وبلوغ الكمال والترقي في

درج الرفعة، وبها نيل نعيم الدنيا والآخرة، والظفر بأجل المطالب وأنجح الرغائب وأشرف المواهب، ومتى كان العبد عارفا بربه محبا له قائما بعبوديته ممتثلا أمره مبتعدا عن نواهيه؛ تحقق له بهذه المعرفة والعبودية اللتين هما غاية الخلق والأمر كمال الإنسان المرجو وسموه المنشود، بل «ليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها ومحبته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، والله ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه»

ومن الأمور الجالبة للمحبة: تذكُر نعم الله وآلائه وإحسانه وبِرّه ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[النحل:٥٣] فإذا تذكر العبد نعم الله عليه المتوالية وعطاياه المتتابعة تحركت في قلبه المحبة وزاد شأنها وارتفع مقامها، وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه كل ليلة تذكر نعم الله جل وعلا وقال مثنيـًا وحامدا ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا ، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ)) رواه مسلم

ومن الأمور الجالبة للمحبة: مجالسة أهل الصلاح والتقى والإيمان والاستقامة ، والاستفادة من أطايب أقوالهم ومحاسن أعمالهم وجميل

أخلاقهم وآدابهم كما في الحديث ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)) رواه أبو داود وغيره .

ومن الأمور الجالبة للمحبة: أن يبتعد المرء عن الأمور التي تحُول بين القلب وبين ربه ومولاه وما أكثر الشواغل التي تشغل القلوب وتمرض النفوس وتضعف الإيمان وتحول بين القلوب وبين محبة الرحمن ، فمن كان يريد لقلبه محبّةً صافية ومحبةً صادقة فليقطع كل طريق يحول بينه وبين تحقيق المحبّة.

وقد عقد ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين فصلا نافعا في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها ، قال: "وهي عشرة:

أحدها قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به .

الثاني التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض .

الثالث دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر

الرابع إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة

السادس مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته

السابع وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى .

الثامن الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة

التاسع مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر .

العاشر مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز و جل

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران استعداد الروح لهذا الشأن وانفتاح عين البصيرة وبالله التوفيق".

فهذه أعظم الأمور الجالبة لمحبة الرحمن الموجبة لدخول الجنان والنجاة من النيران رزقنا الله جميعا ذلك إنه تبارك وتعالى سميع مجيب، اللهم إنا نسألك حبك وحب كل من يحبك وكل عملٍ يقربنا إلى حبك ، اللهم اجعل حبك في قلوبنا أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وملذاتنا وأحب إلينا من الماء البارد في شدة الظمأ والعطش ، إنك سميع الدعاء وأنت أهل الرجاء وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا

محمَّد وآله وصحبه أجمعين.